مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء العاشر يوم الاثنين 10 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا، وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

نبدأ في هذا اللقاء بالتذكير بموضوع اجتماعاتنا، وهو: الكلام عن المهمات التربوية التي تسبب العافية النفسية لنا ولمن تحت أيدينا، وهذه من أعظم المسؤوليات. من أعظم المسؤولية:

- تغذية نفسنا بالتصورات السليمة، منتزعة من كتاب الله ومن سنة رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

- وتغذية أرواحنا بالحق وتغذية أرواح من هم تحت أيدينا من أجل أن نكون أهلًا للعافية، فإن العافية أعظم مطالب الإنسان العاقل.

والعافية لها أسبابها:

- تصورات صحيحة.
- تعاملات صحيحة.
- معرفة الحق وتبنّيه.
- الإقبال على الخير وتمنّيه، كما أوصى الإمام أحمد ابنه بأن ينوي الخير، قال: "فإنك بخير ما نويت الخير"

هذه المهمات التربوية نرجو أن توصلنا إلى العافية النفسية والعافية البدنية لنا ولذرياتنا، نلتقي كل يوم أمام أحد المفاهيم المنتزعة من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- لصناعة التصور الصحيح، وهذه المسألة تحتاج إلى كثير من التداول والإعادة والتفكير، وفي كل يوم نذكر ما يتيسر لنا من هذه المهمات التربوية، سائرين على خطة وطريقة نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يوفقنا فيها، وهي أن نذكر المهمات التربوية التي تعالج المشكلات التي يواجهها الإنسان المؤمن مع نفسه ومع مجتمعه ومع أبنائه، وهكذا.

اليوم سنقف أمام سورة عظيمة من سور القرآن، يشهد بعظمتها اسمها: سورة التوبة، وكم لهذه العبادة من شأن عند رب العالمين. التوبة عبادة عظيمة إلى درجة أن الإنسان يتمنى أن يُقبض على توبة، تمحو عنه ما مضى من ذنوبه، وتجعل صفحته بيضاء، والوصية الدائمة أن نستغفر الله ونتوب إليه متبعين سنة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فإن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان يستغفر الله ويتوب إليه في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة. وسبعين هنا للتكثير، يعني أنه يستغفر الله ويتوب إليه كثيرًا. فسورة التوبة الواجب على من يقرؤها أن يتأمل: عن أي شيء سيتوب؟ ما هي الذنوب التي ستعالجها سورة التوبة ويُطلب منا أن نتوب عنها؟ فالقارئ كما ينبغي ستتوسع معه المسألة، وسيتصور مفهوم التوبة مفهومًا عامًا، يكاد الإنسان ما يخلو في زمن من حاجته إليه؛ لأن الإنسان متعرض لهذه المسائل التي ذكرتها السورة بصورة متكررة.

ذكرت السورة كثيرًا موضوع التعلق بالدنيا، ذكرت لنا أن انحرافات شديدة إنما حصلت بسبب التعلق بالدنيا وحبها،

فأولئك القوم يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، وأولئك القوم ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، وتمر على آيات تستوقفك مع نفسك ومع موضوع التوبة وموضوع التعلق الدنيوي. وهنا التعلق لا يُتصور أنه المحبة الشديدة، وإنما التعلق يعني أن يصبح الإنسان كأنه مخنوق، مرتبط ارتباطًا يخنقه، لا يجعله عبدًا لله وإنما عبدًا لهذا الشيء الذي تعلق به. ولا بد أن يكون للمحبة نصيب في هذا؛ لذلك من أعجب ما تسمع قوله تعالى: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ) وهكذا تعد الآية، تعد الأزواج، تعد العشيرة، تعد الأموال التي اقترفتموها، تعد التجارة التي تخشون كسادها، حتى المساكن التي ترضونها وزينتموها وفعلتم، إذا كانت هذه (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا). سورة التوبة تعالج هذه التعلقات، وتبيّن أن هذه التعلقات تعيق المؤمن من السير إلى ربه، فتبيّن للمؤمنين المنهج القويم: لا تلتفت إلى هذه التعلقات، لا تلتفت إلى الأعداد. أنت إذا التفت إلى المال، أو التفت إلى العشيرة، وظننت أن هؤلاء هم سندك وهم قوتك؛ منهم أو من عددهم، كما سيأتي بعد ذلك -وهو موضوعنا-، تغتر بهم، تغتر بالكثرة، هذا سيسبب لك أن

تعرض نفسك للابتلاء، تعرض نفسك للاختبار، حتى يصل بك الأمر كما وصف سبحانه وتعالى: (ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) يصل الأمر إلى هذه الحال! وربنا يضيق عليك الأرض بما رحبت رحمة منه لتعلم أن لا أحد يستحق أن تتعلق به، ولا تتمسك بحباله إلا الله، تعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه.

السورة تقول: "اتركوا وراءكم هذه المتعلقات واجعلوا كل المحيطين بكم وسيلة للوصول إلى ربكم، لا كثرة مال ولا كثرة عدد ستكون سببًا لنصرتكم، ولا سببًا لرفعتكم"، إنما إقبالكم على ربكم، فلتتوبوا من هذه التعلقات، فلتتوبوا من هذه التصورات، فلتعلموا أنه لا ينقذكم أن تكون لكم أرصدة وأموال، ولا أن يكون لكم أبناء، ولا أن يكون الطب قد تقدم، ولا أن يكون المبنى ضد الزلزال! لن ينفعكم هذا، وإنما ينفعكم التعلق بالله والتمسك بحبله، وهذا -كما سيتبين- لا يعني عدم الأخذ بالأسباب، وسنؤكد على هذا المعنى، ونزيده بيانًا؛ من أجل أن تكتمل الصورة التي ناقشناها في اللقاء الماضي.

سورة التوبة قطعت هذه الأغلال التي تحبس الإنسان عن الإقبال على الله والتعلق به وحده، سورة التوبة تجعلك عبدًا واحدًا في الأرض لإله عظيم كامل الصفات في السماء، فتكون واحدًا لواحد، تكون سببًا لتحررك الحقيقي، وتبيّن الطريق إلى رب العالمين، كيف يسير الإنسان في طريقه إلى ربه، يجاهد نفسه، يطلب العلم، يبذل ما يستطيع، فالمتوقع أننا حين نقرأ هذه السور ونتأمل فيها تأملًا كما ينبغي؛ نراها قد حررتنا من العوائق وأعدّتنا للإقبال على ربنا. وهذا حتى لو تولى جميع الناس، كما في ختام السورة، فالله حسبنا ونعم الوكيل، عليه توكلنا وعليه يتوكل المتوكلون، هو رب العرش العظيم، سبحانه وتعالى.

لذا تتميمًا لنقاشنا أمس في الكلام في سورة الأنفال عن غزوة بدر وموطن قلة المؤمنين، وكيف نصرهم الله -عزَّ وجلَّ- مع عدم وجود الأسباب، لكن قوة الإيمان كانت سببًا جالبًا للنصر، أخذوا السبب الذي بين أيديهم، والعدد الذي كان معهم ولو كان قليلًا، أقدم إقدام الواثق بربه فنصره الله. حين نأتي لسورة التوبة التي تُعلمنا أن نتوب عن التعلقات

ونحرر أنفسنا من العوائق والأغلال، نجد قصة تقابل هذه القصة تمامًا، تقابل قصة غزوة بدر وما كان فيها من قلة، وما كان فيها من إقبال على الله، نرى قصة تقابلها وهي قصة غزوة حنين، وسنسمع ما يتيسر عن هذه الغزوة، لكن سيكون مضمونها، والمهم بالنسبة لنا في المهمات التربوية، أن نفهم كيف نتعامل مع الأسباب. سنتكلم عن حنين، وعن الغزوة وعن ما حصل فيها، لكن يهمنا بعد ذلك كيف نتعامل مع الأسباب. سنسمع الآيات (25) و(26) في سورة التوبة، ثم نبدأ بعد ذلك في النقاش نسأل الله أن يوفقنا ويتقبل منا:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

ابتدأت هذه الآيات بقوله تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ) وهذا فيه تأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله، على التحقيق لم ينصركم إلا الله، وهنا نلاحظ أن هذه الكلمة (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ)

أتت بعد أمر الله -عزَّ وجلَّ- المؤمنين أن يقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء، إلى آخر ما ذكرنا. فيذكّرهم رب العالمين أنه هو الناصر لهم -سبحانه وتعالى-، ويظهر لهم حقيقة النصر؛ أنه إنما هو من عند الله، (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ) وتسمع ما يشبه هذه الجملة في نفس السورة لكي تتصور أن السورة تدور حول: "توبوا عن أي علائق وتعلقوا بالله"، تسمع مثلها حين تتقدم في السورة وتسمع عن هجرة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ) إلى آخر الآية الكريمة، ونلاحظ في الآية أيضًا: (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) وهذا سيطابق ما سنسمعه الآن عن غزوة حنين. فالبداية تؤكد على أن النصر إنما هو من عند الله، وكل خير إنما هو من عند الله، فتعلقوا بالله تعلق من يثق به -سبحانه وتعالى-، ويعلم أن الأمر كله بيد الله. ظاهر لكم (قد) التي تدل على التحقيق، (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ) لا تنسوا هذا في حياتكم أبدًا، ما حصل في حنين يشير إلى هذه الحقيقة: أن النصر إنما هو من عند الله.

لماذا خُصّ يوم حنين بالذكر من بين كل الحروب؟ لأن المسلمين كان عندهم حدث هنا، لو أردنا أن نختصره نقول: إنهم هُزِموا في أثناء نصرهم ثم عاد إليهم النصر، وسبب الهزيمة هو الذي يجب التوبة عنه؛ لأن رب العالمين مباشرة أخبرنا عن سبب الهزيمة، ماذا كان منكم يوم حنين؟ (إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ) هذا الأمر الخطير، هذا الخطأ في الأدب مع الله، ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم، ما كان ينبغي لكم أن تجعلوا قلوبكم معلقة بعَددكم وبعُددكم، النصر من عند الله. وحنين اسم وادٍ بين مكة والطائف كانت فيه هذه الواقعة، وهذه الواقعة حصلت بعد فتح مكة، وكان عدد المسلمين في هذه الواقعة اثني عشر ألفًا، وكان الطرف الثاني هم هوازن وثقيف وأحلافهم. ما الذي حركهم؟ نهضوا لقتال النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- كما يقول المفسرين: "حمية وغضبًا لهزيمة قريش ولفتح مكة." فالذي حصل أنهم جمّعوا قواهم، ووصل للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- الخبر، فخرج إليهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- حين اجتمعوا بحنين، وكان النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأصحابه معهم قوة، عَدد وعُدّة، فسالوا على الوادي وقوتهم ظاهرة، لكن قبل

أن يدخلوا هذا الوادي كان بينهم الكلام وفي قلوبهم أننا لن نُغلب اليوم من قلة، ووثقوا في النصر لقوتهم، فحصلت لهم هزيمة عند أول اللقاء، وكان هذا من العتاب الإلهي على نسيانهم التوكل على الله في النصر وعلى تعلقهم بعددهم، واعتمادهم على كثرتهم.

وقد رُوي أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما سمع قول بعض المسلمين: "لن نُغلب من قِلّة"، ساءه ذلك. وتصور كيف أن هناك أسبابًا لا تمر على خاطر الإنسان، يتوقع أن السبب الذي معه فاعل فاعل، وما حصل أنه لما سال المؤمنين في وادي حنين، كان الأعداء -وهم أعلم بالوادي فهم أهله- قد كمنوا لهم في شعابه وأنحائه، فَفُوجئ المسلمون وهم منحدرون في الوادي بكتائب العدو قد شدّت عليهم. ما كانوا صفين، وكان المتوقع أن يكونوا صفين في القتال، لكن الأعداء كأنهم عملوا لهم كمينًا، نزلوا الوادي وهؤلاء اشتدوا عليهم، وكانوا هم كمنوا لهم في شعاب الوادي. وقد عُرف عن هوازن أنهم رماة، فتسلطوا على المسلمين بالسهام، فأدبر المسلمون راجعين لا يرون أمامهم أي طريق، وتفرقوا

في الوادي، وتطاول عليهم المشركون، والرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ثابت في الجهة اليمنى من الوادي، ومعه عشرة من المهاجرين والأنصار. فأمر رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- عمه العباس، وقد كان جهورا في صوته، أن يصرخ بالناس: "يا أصحاب الشجرة، يا أهل بيعة الرضوان، يا أصحاب سورة البقرة، يقصد بهم الأنصار، هلموا إلي"، فاجتمع إليه -صلَّى الله عليه وسلَّم- مئة وقاتلوا هوازن مع من بقي مع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وبدأ المسلمون يجتمعون ويتجلدون، ورجع بقية المنهزمين، واشتد القتال، فكانت الدائرة على المشركين، وهزموا شر هزيمة، وغُنمت أموالهم وسُبيت نسائهم. هذه القصة بالإجمال لكن نرى تفاصيلها من خلال النص القرآني.

يأتي هنا العتاب، يوم حنين هذا الذي حصل فيه منكم أن أعجبتكم كثرتكم فجعلتكم تعتمدون عليها حتى قلتم: "لن نغلب اليوم من قلة"، والحقيقة أنها لم تغنِ عنكم، (فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا) ما أغنت عنكم من أمر عدوكم مع قلة عدوكم. مع قلة عدوكم! لكن هذا الذي حصل؛ أنكم وصل بكم الحال -بسبب

أن كثرتكم ما نفعتكم- إلى أن تضيق عليكم أنفسكم،(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) وهذا تمثيل عجيب وقد تكرر في السورة مرتين، هنا في حنين وهناك في الثلاثة الذين خُلّفوا (ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)، وهناك في الثلاثة الذين خُلّفوا كان الأمر نفسه: معالجة التعلق بالدنيا.

نكون هنا مع غزوة حنين وكيف (ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)، تصور حين يكون الإنسان متعلقًا بالأشياء ثم يُفاجأ أنها ما نفعته! يكون بصورة الإنسان الذي لا يستطيع الخلاص من شدة؛ بسبب اختلال قوة تفكيره، هذه حالة الإنسان، يكون مطمئنًا لهذا الجانب: مطمئنًا لرصيده، لعلمه، لدراسته، لحفظه، مطمئنًا لأي شيء من أشياء الدنيا، مطمئنًا لوجود أبنائه أو والديه أو ما يكون، ثم يصاب بمصاب لا يستطيع الخلاص من هذا المصاب؛ لأنه اختل عليه التفكير، عقله كان مربوطًا بهذه المسألة أنها هي التي تنفعه، ثم يفاجأ أنها ما نفعته فيصبح كالمشلول، يختل تفكيره! هذا الوضع يشبه شخصًا في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع أن يتجاوزه ولا ينتقل منه، فتكون الأرض رحبة

وهو كأنه محبوس في مكان ضيق، وهذا مثله، تكون الحلول كثيرة لو تعلق برب العالمين، لكنه تعلق بهذا الشيء فركز تفكيره عليه، وارتبط به ورأى أن هذا هو المنفذ فقط، لا غير هذا سيساعدني، لا غير هذا سيعطيني، لا غير هذا الحل، فحين يجد أنه ليس حلًا تختل قوة تفكيره، فيصبح مثل هذا، تضيق عليه الأرض حال كون الأرض رحبة لا ضيق فيها، وهذا من الذعر والخوف والإحباط، يأتي مثل هذا، ويقول لهم رب العالمين: (ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) وهذا أعظم الشر؛ أن يتولوا مدبرين ويتركوا رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- ويتركوا الجهاد في سبيل الله.

ثم إن الله -عزَّ وجلَّ- أخبر عن منّته عليهم، بعد أن أدّبهم وربّاهم، فقال عزَّ وجلَّ: (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ)، نلاحظ (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ)، (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ) الله صاحب الفضل والإنعام على خلقه، الله من تتعلق به النفوس وتتمسك بحبله، إليه المشتكى، وعليه -عزَّ وجلَّ- الاعتماد، وبه الثقة. فيقول رب العالمين: (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ) يعني هناك زمن بين حصول هذه الأحداث كلها وإنزال الله السكينة، (ثُمَّ) تشير إلى ذلك، يعني أن هذا دال

على التراخي، كأن هناك زمن بين هذا وهذا. وهذا أيضًا من أعظم ما نزل على الأصحاب الكرام؛ فنزول السكينة ونزول الملائكة أعظم من كل سبب، وهنا نلحظ أن المسلمين جرت معهم الأحداث سريعًا، بين أن حصلت الهزيمة وبين أن نادى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وبين أن اجتمع الأصحاب الكرام، حتى أن الرجل لما كان يسمع النداء ويريد أن يرجع إلى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ويجد أن المنهزمين كثير، ودابته لا تستطيع أن تلتفت لأجل أن تعود إلى النبي، فكان يترك دابته وينزل بسلاحه ويسير على قدمه ويذهب للنبي،-صلَّى الله عليه وسلَّم-. معنى ذلك أنه واقعيًا حدث هذا الأمر بسرعة، لكن، سبحان الله! لِعظم الشدة وهول المصيبة كأنه توجد مدة زمنية طويلة، كأن بين ما حصلت الهزيمة وبين ما اجتمعوا على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- كأنها مدة، وهي كانت وقت قصير، لكن هكذا أزمان الشدة تُخيّل طويلة وإن قصرت.

أنزل الله -عزَّ وجلَّ- السكينة وهي الثبات وطمأنينة القلب، ونلاحظ أن هذه السكينة مضافة إلى الله (سَكِينَتَهُ) هذا دليل

على أنها شيء عظيم، وهذه السكينة شأن خارق للعادة، ليس لها أسباب ولا مقدمات ظاهرة، وإنما حصلت بمشيئة الله، ووقعت في نفوسهم، وعادوا إلى رسولهم، واجتمعوا عليه، واطمأنت قلوبهم، نادى العباس، رضي الله عنه، عم رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- في الناس كما أمره الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فما كان من الناس إلا أن أقبلوا، هذه لحظة السكينة، نزلت فجعلت في قلوب أهل الإيمان شعورًا بالطمأنينة وشعورًا بالقوة والشجاعة، فعادوا إلى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-. وهنا تسمع أن السكينة نزلت على رسول الله وعلى المؤمنين. كأن سكينة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- مختلفة عن سكينة المؤمنين، نزلت على الرسول السكينة أن المسلمين عائدين وأنهم عليه مجتمعين، وأنهم لا يهلكون، وأنهم ينتصرون. وسكينة المؤمنين، كما يذكر المفسرين: "سكينة ثبات وشجاعة بعد ما حصل منهم ما حصل من الخوف والفزع" ومنّ الله -عزَّ وجلَّ- عليهم أيضًا بأن (أَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا)، وهكذا نعود إلى الملائكة والإيمان بهم وكيف أن رب العالمين يثبت المؤمنين بالملائكة الكرام. (وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) هذه الملائكة، فكانت سببًا في

طمأنينة المؤمنين، وسببًا في نزول الهزيمة على الكافرين، فعذب الله الذين كفروا بأيدي المؤمنين وأيدي الملائكة، واستولى المؤمنون على نساء وأولاد وأموال الكافرين، وهذا جزاء الكفر.

إلا أن هذه الغزوة -من باب البيان-، تحمل معنى لطيفًا نعرفه عن المسلمين، هم قاتلوا المسلمين والمسلمين قاتلوهم، أصبحت الكرّة للمسلمين وانتصروا، وهوازن وأتباعهم خرجوا ومعهم نسائهم وأولادهم وأموالهم، وهذه الطريقة معروفة عند العرب، أنهم حين يفعلون هذا الفعل لأجل أن يمنعوا أنفسهم من أن ينهزموا ويعودوا؛ لأن وراءهم تكون نسائهم فلا ينهزمون عنهم ولا يفرون. فكانت الغلبة للمسلمين، وهذا كله انتقل للمسلمين لأن المسلمين هم المنتصرين والسَّلَب كله للمسلمين، من نساء وذرية وأموال. لما انتهى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- من هذه المعركة وحصل هذا الخير كله إلى المسلمين، عادت ثقيف وهوازن إلى الطائف وتحصنوا، عملوا حصونًا منيعة في الطائف، اتخذوا كل الإجراءات والاستعدادات التي تمكنهم من حصار

طويل، فهم تصوروا أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- سيلحقهم ليقاتلهم وقد كان. ثم في قصة تقرأها في السيرة، الله أدخل الإيمان في قلوب هوازن، فجاء وفد من هوازن للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قبل أن يقسم الغنائم، وحصلت هنا حادثة، لكن نهايتها: أن هؤلاء عادت إليهم أموالهم وذراريهم؛ ولذلك يقول، عزَّ وجلَّ: (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ) وهذا إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة؛ لأنهم جاؤوا للرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- مسلمين تائبين، وسألوه أن يرد إليهم سبيهم وغنائهم، وهذا أكبر نصر بالنسبة للمسلمين؛ لأنهم يريدون نشر الدين، فلما انتشر ماذا سيفعلون؟ ردوا عليهم؛ لذلك (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ)، تاب الله عليهم، وحصل منهم هم أيضًا التوبة، هم تابوا وتاب الله عليهم، (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، ورد النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- عليهم ذراريهم، خيّرهم بين الأموال والذرية فاختاروا ذريتهم؛ فرد عليهم ذرياتهم وعوضهم الله -عزَّ وجلَّ- عن أموالهم، وهو الذي وعد بذلك كما في أواخر سورة الأنفال، لما أمر الله -عزَّ وجلَّ- رسوله أن يقول للقوم: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ

إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1] فهم اختاروا أن تعود لهم ذريتهم وعوضهم الله -عزَّ وجلَّ- عن أموالهم، وهكذا أهل الإسلام مقصدهم نشر الدين.

نعود إلى القصد الرئيس من هذه المناقشة وهو: الكلام عن الأسباب، فربما يظن السامع أن هذه المناقشة تدل على ترك أنفسنا دون أن نأخذ بالأسباب، وهذا باطل، لا تظن أن الاعتماد على الله يعني ترك الأسباب، لكن كن حذرًا من أن تعتمد على الأسباب. ودائمًا نقارن بين الأنفال والتوبة، بين بدر وحنين، قلة نصرهم الله، كثرة تعرضوا إلى الخذلان بسبب إعجابهم بأنفسهم، اعتمادهم على السبب. هذا الاعتماد على السبب يحتاج إلى توبة، هذا الحال جاء في سورة التوبة حتى نفهم أنه يحتاج إلى توبة. نقرأ هنا كلامًا جميلًا لابن القيم ينفعنا في مسألة الأسباب. يعلق ابن القيم على غزوة حنين ويقول:

---

[1] () الأنفال: 70.

"تسببت حرب هوازن له -صلَّى الله عليه وسلَّم- في إظهار أمر الله، كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَعَدَ رَسُولَهُ وَهُوَ صَادِقُ الْوَعْدِ، أَنَّهُ إِذَا فَتَحَ مَكَّةَ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا، وَدَانَتْ لَهُ الْعَرَبُ بِأَسْرِهَا، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ الْفَتْحُ الْمُبِينُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ أَمْسَكَ قُلُوبَ هَوَازِنَ وَمَنْ تَبِعَهَا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يَجْمَعُوا وَيَتَأَلَّبُوا لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُسْلِمِينَ ؛ لِيَظْهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَتَمَامُ إِعْزَازِهِ لِرَسُولِهِ وَنَصْرِهِ لِدِينِهِ، وَلِتَكُونَ غَنَائِمُهُمْ شُكْرَانًا لِأَهْلِ الْفَتْحِ، وَلِيُظْهِرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ، وَقَهْرَهُ لِهَذِهِ الشَّوْكَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَمْ يَلْقَ الْمُسْلِمُونَ مِثْلَهَا. هؤلاء من أقوى من لقيهم المسلمون. فَلَا يُقَاوِمُهُمْ بَعْدُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ. حين يقاتلون هوازن فلا أحد يستطيع أن يقاومهم بعد هوازن. وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي تَلُوحُ لِلْمُتَأَمِّلِينَ، وَتَبْدُو لِلْمُتَوَسِّمِينَ.

وَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ أَذَاقَ الْمُسْلِمِينَ أَوَّلًا مَرَارَةَ الْهَزِيمَةِ وَالْكَسْرَةِ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ، وَقُوَّةِ شَوْكَتِهِمْ اسمع الآن هذا الكلام المهم جدًا: لِيُطَامِنَ رُؤُوسًا رُفِعَتْ بِالْفَتْحِ، وَلَمْ تَدْخُلْ بَلَدَهُ وَحَرَمَهُ كَمَا دَخَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَاضِعًا رَأْسَهُ مُنْحَنِيًا عَلَى فَرَسِهِ، حَتَّى إِنَّ ذَقْنَهُ تَكَادُ تَمَسُّ سُرْجَهُ تَوَاضُعًا لِرَبِّهِ وَخُضُوعًا لِعَظَمَتِهِ، وَاسْتِكَانَةً لِعِزَّتِهِ، أَنْ أَحَلَّ لَهُ حَرَمَهُ وَبَلَدَهُ، وَلَمْ يَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدَهُ."

يعني هذا أحد أسباب الهزيمة، أن يكسر أناسًا (ليطامن رؤوسًا) لتنخفض رؤوس رُفعت بالفتح، قاتلوا في مكة، دخلوها ما كان موقفهم مثل موقف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، كما وصف ابن القيم هنا، وأتى في الآثار أنه لما دخل مكة كان ذقنه الشريفة -صلَّى الله عليه وسلَّم- تمس رقبة دابته، وهذا تواضعًا لربه وخضوعًا لعظمته واستكانة لعزته، وهناك أناس دخلوا فرحين، دخلوا معجبين، ظهرت هذه بعد ذلك في حنين. فأذاقهم هذا حتى ينكسروا. يقول:

" وَلِيُبَيِّنَ سُبْحَانَهُ لِمَنْ قَالَ: "لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ عَنْ قِلَّةٍ" أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّهُ مَنْ يَنْصُرْهُ فَلَا غَالِبَ لَهُ، وَمَنْ يَخْذُلْهُ فَلَا نَاصِرَ لَهُ غَيْرُهُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى نَصْرَ رَسُولِهِ وَدِينِهِ، لَا كَثْرَتُكُمُ الَّتِي أَعْجَبَتْكُمْ، فَإِنَّهَا لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا، فَوَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ."

إذًا فلنتب توبة نصوحًا من إعجابنا بإنجازاتنا، ومن اعتمادنا على أنفسنا وعلى ما تحت أيدينا. لنتب، يقول ابن القيم: "فلَمَّا انْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ أُرْسِلَتْ إِلَيْهَا خِلَعُ الْجَبْرِ مَعَ بَرِيدِ النَّصْرِ"، الله خلع عليهم، وهبهم، أعطاهم، ألبسهم الجبر مع بريد النصر. ثم يستشهد بقوله تعالى (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) وَقَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنَّ خِلَعَ النَّصْرِ وَجَوَائِزَهُ إِنَّمَا تَفِيضُ عَلَى أَهْلِ الِانْكِسَارِ، واستشهد بقوله تعالى: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ). منَّ الله على هؤلاء المنكسرين، لكن المتجبرين المتكبرين قد يعطيهم، ويعطيهم حتى يقعوا فيما يقع فيه أهل الكبر من أن يظنوا أنهم متمكنين من كل شيء، فيخرجون على قومهم في زينتهم، ويخرجون كل يوم على العالم بزينتهم فما يكون إلا أن يخسف الله بهم.

يذكر ابن القيم أيضًا فوائد من هذه الغزوة، يقول:

"إِنَّ مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ اسْتِعْمَالَ الْأَسْبَابِ الَّتِي نَصَبَهَا اللَّهُ لِمُسَبَّبَاتِهَا قَدَرًا وَشَرْعًا، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابَهُ أَكْمَلُ الْخَلْقِ تَوَكُّلًا، وَإِنَّمَا كَانُوا يَلْقَوْنَ عَدُوَّهُمْ وَهُمْ مُتَحَصِّنُونَ بِأَنْوَاعِ السِّلَاحِ، وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَكَّةَ، وَالْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ وهي أداة لحماية الرأس، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ). كيف نجمع بين أن الله يعصمه من الناس وهو أخذ بالأسباب؟ يقول ابن القيم: "وَلَوْ تَأَمَّلَ هَؤُلَاءِ أَنَّ ضَمَانَ اللَّهِ لَهُ الْعِصْمَةَ لَا يُنَافِي تَعَاطِيَهُ لِأَسْبَابِهَا، لَأَغْنَاهُمْ عَنْ هَذَا التَّكَلُّفِ، فَإِنَّ هَذَا الضَّمَانَ لَهُ مِنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُنَاقِضُ احْتِرَاسَهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يُنَافِيهِ، كَمَا أَنَّ إِخْبَارَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُ بِأَنَّهُ يُظْهِرُ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَيُعْلِيهِ لَا يُنَاقِضُ أَمْرَهُ بِالْقِتَالِ وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ وَالْقُوَّةِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ، وَالْأَخْذِ بِالْجِدِّ وَالْحَذَرِ وَالِاحْتِرَاسِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَمُحَارَبَتِهِ بِأَنْوَاعِ الْحَرْبِ وَالتَّوْرِيَةِ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ الْغَزْوَةَ وَرَّى بِغَيْرِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ عَاقِبَةِ حَالِهِ وَمَآلِهِ بِمَا يَتَعَاطَاهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مُفْضِيَةً إِلَى ذَلِكَ مُقْتَضِيَةً لَهُ."

ربنا يقول له: "سأعصمك من الناس، وسأحميك منهم"، والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يأخذ الأسباب، وبأقل سبب تحصل له هذه النتيجة، الله -عزَّ وجلَّ- يخبره بالنتائج والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يأخذ بالأسباب فتظهر النتائج، وهذا امتثالًا لأمره. كيف يعطل النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- الأسباب؟ لا يتوقع هذا ولا يتصور، يقول ابن القيم: "وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْلَمُ بِرَبِّهِ، وَأَتْبَعُ لِأَمْرِهِ مِنْ أَنْ يُعَطِّلَ الْأَسْبَابَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَهُ بِحِكْمَتِهِ مُوجِبَةً لِمَا وَعَدَهُ بِهِ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ إِظْهَارِ دِينِهِ وَغَلَبَتِهِ لِعَدُوِّهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ضَمِنَ لَهُ حَيَاتَهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَاتِهِ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ، وَهُوَ يَتَعَاطَى أَسْبَابَ الْحَيَاةِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ، وَهَذَا مَوْضِعٌ يَغْلَطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى آلَ ذَلِكَ بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنْ تَرَكَ الدُّعَاءِ" وهذا باطل، الحقيقة كما تبين: الإنسان يأخذ بالأسباب، والله -عزَّ وجلَّ- ينفعه بهذه الأسباب، لكن الشرط أن تكون أسبابًا صحيحة وألا يحصل في قلبه اعتماد عليها، بل يعلم أنها تنفع متى ما نفع الله بها. فلا تُعجب بها ولا تعتمد عليها ولا تتعلق بها، وإنما اطلب من الله الأسباب، فإذا أصبحت بين يديك، أسأل الله أن ينفعك بها، فإذا نفعك بها، اسأل الله أن يعطيك ما تريد، وأن يكون

ما تريده مباركًا. نسأل الله بمنّه وكرمه أن يعافينا من التعلق بالأسباب والإعجاب بها والاعتماد عليها، ونسأل الله أن نكون منتفعين بهذه الأخبار، فلا نذوق طعم هذه التجارب، نعتمد على غير الله فيذيقنا الله مر الاعتماد على غيره، الله يعافينا من مر الاعتماد على غير الله، نحن وذرياتنا والمسلمين، اللهم آمين. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.